ندوة أنطلياس حول كتابي الأخير: "أيهما هو؟"

أتوجّه بالشّكر أوّلاً إلى الحركة الثّقافية في أنطلياس لإقامتها هذه النّدوة حول كتابي الأخير: "أيهما هو؟" ثمّ أتوّجه بالشّكر إلى الأصدقاء والزّملاء الذين شاركوا في هذه النّدوة وشكري لهم ثلاثي الاتّجاهات: أشكرهم لأنّهم قرأوا ثمّ لأنّهم كتبوا وأخيراً أشكرهم على ما كتبوا. أتوّجه أيضاً بالشّكر إلى كل الأصدقاء الذين لبّوا الدّعوة وحضروا للمشاركة في إنجاح هذه النّدوة.

كنت أميل إلى الاكتفاء بالشّكر هذا، لكن طلب منّي أن أحضّر كلمة صغيرة للمناسبة. أوّل ما خطر في بالي هو أن أتكلّم عن تجربة الكتابة، تجربتي طبعاً لأن كل كاتب له تجربته الخاصّة. لن أطيل، سأروي باختصار شديد هذه التّجربة.

إنّ ممارسة الكتابة علّمتني أن أطرح سؤالين حول تجربة الكتابة: أوّلاً لماذا نكتب وثانياً كيف نكتب.

أوّلاً لماذا نكتب؟ علّمتني مكتسباتي الثّقافية وقراءاتي التي أدّعي أنّها كثيرة_ ودائماً ناقصة_ لأنّني أمضيت القسم الأكبر من حياتي بين الكتب، علّمتني أنّ الشّيء لا يوجد إلاّ حين يعقل أي حين نجد له اسماً، حين نعرفه، فبتسمية الشيء يكون انوجاده (والشّرح هنا يطول). لكن استمرارية هذا الوجود تتمّ بواسطة التداول الذي يستقيم فعله حين يغيب فعل التّعريف ولا يبقى سوى المعرّف عنه ولذلك نستعمل الكلمات من دون أن نفكّر أو نعي أصلها ولا كيفيّة وصولها إلينا. لكن هذه الاستمرارية لا تحظى بديمومتها واختراقها لمفعول الزّمن إلاّ حين تدوّن وتحفظ في كتب تشبه الأضرحة لكنّها أضرحة لكائنات، ولهذا السّبب تحفظ على رفوف المكتبات وفي الهواء الطلق وليس تحت التراب. إذاً الكتابة هي التجربة التي تعلّمنا كيف يستمر الإنسان بعد موته.هنا أرى أنّه وعلى الرّغم من أن لكل إنسان هدفاً من وراء الكتابة يبقى أنّ الهدف الأهم هو ذلك الوهم الذي ندخله أو تلك اللّعبة نلعبها أحياناً ببراءة وفرح لأنّنا نعيها، وأحياناً أخرى نلعبها بمأساويّة كبيرة لأنّنا نعيها أي نعرف أنّها مجرّد لعبة، لعبة الخلود الوهم الذي يلجأ إليه الإنسان هرباً من حياة بائسة وهي حتماً بائسة، مهما بدت ناجحة لأنّ نهايتها هي ذلك العدم الذي لا يرتوي. لكنّها، أي الكتابة ومن بين الألعاب الكثيرة في الحياة هي اللّعبة الأمتع بنظري لأنّها المجال الذي يمارس فيه الكاتب، وبخاصّةً إذا استمرّ هاوياً وليس محترفاً، نرجسيّته بكاملها. والفرق بين الهاوي والمحترف هو أن الأوّل يعي أنّه يلعب بينما الثّاني لا يعي أنّه يلعب وهكذا يحاول الأوّل إرضاء الآخرين، يعني الرأي العام، أو إرضاء "الحقيقة". لكن هذا المحترف بجديته هذه يخسر نفسه مرّتين، مرّة لأنّه لن يستطيع إرضاء الآخر ومرّة ثانية لأنّه لن يرضي الحقيقة لأنّها وبكل بساطة غير موجودة.

أمّا السّؤال الثّاني: كيف أكتب فيدخلني مباشرةً في تجربتي الخاصّة. أوّل عمل قمت به في مجال الكتابة كان دراسة حول تحرير المرأة. كتبت هذه الدّراسة باندفاع كبير ووضعت فيها كلّ قناعاتي حول الموضوع قناعاتي في تلك المرحلة أي في بداية السّبعينات وقناعاتي تلك كانت أنّه لا يوجد اختلاف بين المرأة والرّجل إلاّ اختلافات شكليّة خارجيّة ليس لها تأثير على الأبعاد الأخرى التي تشكّل جوهر الإنسان.

انطلاقاً من هذه القناعات تابعت التحصيل والتّعلّم من تجارب الحياة وتابعت أيضاً الكتابة. لكنّي كنت كلّما ازددت تجربة وتحصيلاً شعرت بالغربة عن كتاباتي. هكذا رويداً رويداً ومع مرور السّنين بدأت أشعر أنّ هناك انفصاماً بيني وبين ما أكتب، انزعاجاً ما، عدم رضى malaise. حين قوي هذا الشّعور أخذت أبحث عن سببه ومع الوقت اكتشفت أن عدم الرّضى ذاك عائد إلى كوني أكتب بالواسطة، يعني أنّني أكتب قولاً أو أقول قولاً غير قولي، أقول ما لا يقولني والسّبب هو أنّني كنت كي أعبّر عمّا أريد التّعبير عنه، كنت أستعير القول السّائد الذي لا بدّ منه لأنّه هو الوحيد الموجود. لكن هذا القول السّائد أصبح أداة عاجزة عن تعبير ما أريد فعلاً. إنّه يعبّر أو يقول ما يجب أن أكون وفقاً للسّائد ولا يعبّر عمّا أنا في الواقع. القول السّائد لم يتغيّر، أنا تغيّرت ولذلك أصبح الشرخ يتّسع بيني وبين قولي وحين بلغ الانفصام حدّاً لا يحتمل توقفت عن الكتابة وام أعد إليها إلاّ حين وجدت الحل هو التالي: إذا كنت لا أجد أنّ القول السّائد هو قولي فهذا يعني أنني مختلفة عمّا يقوله. وبما أنّ هذا القول السائد هو القول الذكوري الذي حين أستعيره أو أستعمله لأعبّر عن ذاتي يجعلني أكون به وليس بذاتي أدركت اختلافي وأدركت أنّه يجب أن يكون هناك قول يناسبني قول يقولني من دون أن أشعر بالانفصام، قول يقول اختلافي كإنسى.

عدت إلى الكتابة بعد انقطاع كنت خلاله أبحث عن ذاتي، عدت إلى الكتابة بعد أن تصالحت مع حالي عدت إلى الكتابة غير آبهة بالقول السّائد ومحاولة بلورة قولي أنا الذي أعتبره القول المختلف لأنّه قول الإنسى. وبما أنّه من الضّروري أن يؤسّس هذا القول على أسس تبرّر وجوده حاولت بعد تجربة الكتابة الجديدة أن أبحث عن هذه الأسس، أسس القول الإنسوي المختلفة عن أسس القول الذكوري السّائد. لكنني مدركة تماماً أنّ الانتقال من قول شكل كل مكتسباتي الثقافية إلى قول آخر أحاول إرساء أسسه، ليس بالأمر السّهل. لذا أحاول وسأستمر في المحاولة علّ ذلك يكون بمثابة وضع المدماك الأوّل في عمارة القول الإنسوي الذي أحاوله جادة ومقتنعة بضرورة إيجاده كي تصبح الإنسى موجودة بذاتها لا بسواها.

وشكراً

إلهام منصور